

صفته واخلاقه

الصاحب ابن عباد علم من اعلام القرن الرابع جمع بين الوزارة والكتابة والسيف والقلم وكان صدرأ في العلم والادب وغاية في الكرم وجلالة القدر وفردأ في الرياسة وكثرة الفضائل فحاسنه تربو كثيراً على زلاته .

هو تلميذ ابن العميد وصنيعته ووارثه في الوزارة والطابع على غراره في السياسة والادب والمربي عليه في الجود والابهة . يتشابه الوزيران في الادب ومناحيه واساليبه ويختلفان في العلم والاخلاق فابن العميد طويل الباع في الفلسفة وفروعها غير متمكن من العلوم الدينية راجح العقل قليل الكلام ذو تودة وروية في اعماله واقواله لا يجب التعاضم والتبجح في علمه وعمله . والصاحب عالم في اصول الدين وفروعه يقدم النص على العقل منحرف عن الفلسفة واصحابها معجب بنفسه فخور بعلمه وادبه مأخوذ بمظاهر العظمة والخيلاء نياه على الكبراء والرؤساء حاضر البديهة قوي الحججة شديد العارضة طلق اللسان محكم الجواب سريع النكتة كثير

الجدل يتكلم بلسانه واعضائه قال ابو حبان التوحيدي : « كان
ابو الفضل ابن العميد اذا رأى صاحب قال : احسب ان
عينه ركبنا من زئبق وحنقه عمل بلولب . وصدق فانه كان
ظريف التثني والتلوي شديد التفكك والتفتل كثير التعوج
والتعوج » وهو مع ذلك مشوه الصورة كما قيل .

قال الثعالبي في بئمة الدهر : « لست تحضرني عبارة ارضاها
للافصاح عن علو محله في العلم والادب ، وجلالة شأنه في الجود
والكرم ، وتفرد به غايات المحاسن ، وجمعه اشوات المفاخر ، لان
همة قولي تنخفض عن بلوغ ادنى فضائله ومعاليه ، وجهد وصفي
يقصر عن ايسر فواضله ومسايعه . ولكني اقول هو صدر
المشرق ، وتاريخ المجد ، وغرة الزمان ، وينبوع العدل
والاحسان ، ومن لا حرج في مدحه بكل ما يمدح به مخلوق ،
ولولاه ما قامت للفضل في دهرنا سوق . وكانت ايامه للعلوية
والعلماء ، والادباء والشعراء ، وحضرته محط رحالهم ، وموسم
فضائلهم ، ومترع آمالهم ، وامواله مصروفة اليهم ، وصنائعهم
مقصورة عليهم ، وهمته في مجد يشيده ، وانعام يجرده ، وفاضل
يصطنعه ، وكلام حسن يصنعه او يسمعه »

مذهب

كان عباد والد الصاحب ينصر مذهب الاعتزال وكان والده
الصاحب يتشيع بمذهب ابي حنيفة ومقالة الزيدية يفضل علياً
ويرى صحة امامة الخلفاء الثلاثة قبله وله في ذلك كتاب اسمه
الامامة في تفضيل علي وتصحيح امامة من تقدمه والصاحب
نفسه يقول :

حب علي بن ابي طالب هو الذي يهدي الى الجنة
ان كان تفضيلي له بدعة فلعنة الله على السعة
ونسب اليه صاحب كتاب الفرق بين الفرق هذين البيتين :
دخول النار في حب الوصي وفي تفضيل اولاد النبي
احب الي من جنات عدن اخلاها بتيم لوعدي
وكتب الصاحب الى الشريف ابي طالب رسالة ورد فيها :
(... فاني^(١) له ومنه ومختلط بالولاء معه وقد قال
الصادق عليه السلام نحن الاعلون وشيعتنا العلويون وقوله
ماروي مولى القوم منهم)

وكان يخض معلوية وينال من يزيد قال :

(١) المختار من ديوان رسائل الصاحب ابن عباد من ٢٢٠ (مخطوط)

فاصب قال لي معاوية خا لك خير الاعمام والاخوال
فهو خال للمؤمنين جميعاً قلت خالي لكن من الخير خالي
قال سهل بن المرزبان كان الصاحب اذا شرب ماء بثلج
انشد على اثره :

قعقة الثلج بماء عذب تستخرج الحمد من اقصى القلب
ثم يقول اللهم جدد اللعن على يزيد .

وكان مثل والده بذهب مذهب المعتزلة في الاصول ويقول
بخلق القرآن وينكر الجبر قال الصاحب :

تعرفت بالعدل^(١) في مذهبي ودان بحسن جدالي العراق
فكلفت في الحب مالم اطاق فقلت بتكليف مالا يطاق
وقال ايضاً :

كنت دهرأ اقول بالاستطاعة وارى الجبر ضلة وشناعه
ففقدت استطاعتي في هوى ظبي فسمعاً للمجبرين وطاعه
ووقع في رقعة لأبي الحسن الشقيقي البلخي « من نظر لدينه
نظرنا لديناه ، فان آثرت العدل والتوحيد ، بسطنا لك الفضل
والتهميد ، وان اقتت على الجبر ، فليس لكسرك من جبر »

(١) يسمي المعتزلة اهل العدل والتوحيد .

وقا ابو محمد الخازن يمدحه :
كذلك توحيدہ الوی باربعہ کفر وجبر وتشبیہ وارجاء
وقال ابو سعید الرستمي فيه :
فخصبت للاسلام اکرم رایة وقصمت اهل الجبر والالحاد
وقال السلامي يهجوہ :
يا ابن عباد بن عبا من بن عبد الله حرها
تنكر الجبر واخرجت الى العالم کرها
وقال قوم من اهل اصبهان للصاحب لو كان القرآن مخلوقاً
لجازان يموت ولو مات القرآن في آخر شعبان بماذا كنا نصلي
التراويح في رمضان ؟ قال لو مات القرآن كان رمضان يموت
ايضاً ويقول لا حياة لي بعدك ولا نصلي التراويح ونستريح .
وكان صاحب يجادل الناس ويدعوهم لمذهبه قال في بعض
رسائله . (. . .) فقد " كان هذا البلد من البلاد المستغلقة على
اهل عدل الله وتوحيدہ ، والتصديق بوعدہ ووعدہ ، هذا وفي
فقهائہا وفور ، وفي الفضل بها ظهور ، وقد اعان الله على بث
كلمة الحق ، وسمع الاكثر على لين ورفق ، وليس تمنعني كثرة

(١) المختار من ديوان رسائل صاحب ابن عباد ص ٢٠٥ و ٢٠٦ (مخطوط)

شغلي ، من الانتصاب في بعض ليالي ، للمذاكرة والتبيين ، والتكشيف والتخليص فقد صلح خلق كثير والحمد لله رب العالمين)
ومن كتاب له الى اهل الصيمرة (. كنتم بحمد
الله ومنه وطوله وفضله ، المشتهرين بالذب عن توحيد الله وعدله ،
وصدقه في وعيده ووعدده ، كان بلدكم من بين البلاد كغرة ادهم ،
وشهاب في ليل مظلم ، وما في النعم أجل موقعا ، واهنا مشرعا ، من
النعمة في القول بالحق والدعاء اليه ، والتدين به والبعث عليه ،
ومهانة من شبه الله بخلقة فتسابع في جهله ، او جوره في فعله
فشك في حسن نظره وطوله ، والحمد لله الذي جمع على كل
الصدق آراءنا ، ووحى من مكاييد الشيطان اهواءنا ، يزين لنا
تسديداً وتأيداً ، وتثبيتاً وتمهيداً ، ويوفقنا لصالح الاعمال ، كما
وقفنا لصالح الاقوال)

وقال ابو حيان التوحيدي : دخل الناس في مذهب ابن
عباد وقالوا بقوله رغبة فيما لديه واجتهد بالحسين المتكلم الكلابي
ان ينتقل الى مذهبه فقال الحسين دعني ايها الصاحب اكون
مستحداً لك مما بقي غيري فان دخلت في المذهب لم يبق
بين يديك من ينبو عليك قبيحه ويبدو للناس عواره فضحك

الصاحب وقال قد اعفيناك يا ابا عبدالله وبعد فما نبجل عليك
بنار جهنم اصل بها كيف شئت .

وزعم ابو حيان التوحيدي ان الصاحب شديد التعصب
على اهل الحكمة والناظرين في اجزائها كالمهندسة والطب والنجيم
والموسيقى والمنطق والعدد وليس له من الجزء الآلي خبر ولا
له فيه عين ولا أثر وانه كان يسب اصحاب الهندسة وانه
سمعه بالري يقول : طبع العقل على ان يشهد للباطل كما
يشهد للحق ولهذا اختلف العقلاء في جميع امر الدين والدنيا .
وقال صاحب معاهد التنصيص : كان الصاحب يبغض من
يميل الى الفلسفة .

وقال ابو حيان التوحيدي في مثالب الوزيرين قال الصاحب :
جاءني بعض الحمقى ورغبني في الهندسة فابتدأ فاثبت خمسة وعشرين
وخط خطأ ووضع شكلا وطول وزعم انه يعمل برهانا على ذلك
فقلت له كنت اعرف ان هذا خمسة وعشرون ضرورة وقد
شككت الآن فانا مجتهد حتى اعلم بالاستدلال وهذا هو الخسار
وهكذا فان الصاحب وان كان معتزليا في الاصول فان
طريقته العملية في البحث طريقة اهل الحديث الذين يعتدون

بالنص اكثر من سائر الادلة وذلك لعنايته بالحديث وروايته
وستقف على ذلك عند الكلام على علمه .

كرم

من اظهر صفات الصاحب الكرم وكثرة البذل واصطناع
المعروف فهو مطبوع على السخاء منذ حداثة لان امه كانت
تعطيه وهو صغير في كل يوم ديناراً ودرهماً ليتصدق بهما
على اول فقير يلقاه في طريقه الى المسجد الذي كان يدرس به .
وهو اكثر بذلاً من ابن العميد وتقدّم بك في الصفحة العاشرة
من هذه الرسالة ان الصاحب انكر في نفسه على ابن العميد عدم
اكرامه لضيوفه في عشية من عشايا شهر رمضان . على ان
جود الصاحب لا يمكن ان يكون كله خالصاً لوجه الله وللبر
والاحسان فكثير منه كان بدافع حب الذات لان الجود من
اعظم اسباب الشهرة وامتلاك القلوب وتخليد الذكر وامتداد السلطة
والصاحب وزير مغربى بالعظمة والقوة وحب الاطراء واشاعة الذكر
والاشادة بمروءته وفضائله وما من وسيلة انجع من الكرم لبلوغ
تلك الغاية لذلك فقد عظمت عطاياه للشعراء الذين يمدحونه حتى
عرض على المتنبي ان يشاطره ماله في سبيل قصيدة يقولها المتنبي فيه .

كان لا يدخل عليه احد في شهر رمضان بعد العصر كائنا
من كان فيخرج من داره الا بعد الافطار وكانت داره لا تخلو
ليلة من ليالي الشهر من الف نفس مفطرة و كانت صلواته
وصدقاته ونفقته في هذا الشهر تبلغ مبلغ ما يطلق منها في
جميع السنة .

و كان يراعي من ببغداد والحرمين من شيوخ الكتاب
والشعراء واولاد الادباء والزهاد والفقهاء بما يحمله اليهم في كل
سنة مع الحاج على مقاديرهم ومنازلهم فكان ينفذ الى بغداد من
ذلك خمسة الاف دينار في كل سنة تفرق على الفقهاء والادباء
و كان يحمل الى ابي اسحق الصابي خمسمائة دينار والى حفيده
هلال الف درهم

قال الوزير ابو سعد منصور بن الحسين الآبي : كان ما
ما يخرج الكافي الكفاة في السنة في وجوه البر والصدقات والمبرات
وصلات الاشراف واهل العلم والغرباء الزوار ومن يجري مجرى
ذلك مما يتكلفه ويريد به صيت الدنيا واجر الآخرة يزيد على
مائة الف دينار .

وقال الثعالبي : حدثني عوف بن الحسين الهمداني التميمي

قال : كنت يوماً في خزانة الخلع للصاحب فرأيت في ثبث
حسابات كاتبها وكان صدقي مبلغ عمائم الخزالتى صرفت
في تلك الشتوية للعلويين والفقهاء والشعراء خاصة غير
الخدم والحاشية ثمانماية وعشرين . قال : وكان يعجبه الخز
ويأمر بالاستكثار منه في داره فنظر ابو القاسم الزعفراني
يوماً الى جميع ما فيها من الخدم والحاشية عليهم الخزوز
الملونة الفاخرة فاعتزل ناحية واخذ يكتب شيئاً فسأل
الصاحب عنه فقبل له : إنه في مجلس كذا يكتب فقال :
علي به فاستهل الزعفراني ريثما يكمل مكتوبه فاعجبه الصاحب
وأمر ان يؤخذ ما في يده من الدرج فقام الزعفراني اليه
وقال : ايد الله الصاحب

اسمعه ممن قاله تزدد به عجباً فحسن الورد في اغصانه

فقال : هات يا أبا القاسم فانشده ابياتاً منها :

سواك يعد الغنى ما اقتنى ويأمره الحرص ان يخزنا

وانت ابن عباد المرتجى تعد نوالك نيل المنى

وخيرك من باسط كفه ومن ثناها قريب الجنى

غمرت الورى بصنوف الندى فاصغر ما ملكوه الغنى

وغادرت اشعرهم مفعما واشكرهم عاجزا الكنا
ايا من عطاياه تهدي الغنى الى راحتي من نأى او دنا
كسوت المقيمين والزائرين كسي لم نخل مثلها ممكنا
وحاشية الدار يمشون في ضروب من الخبز الا انا
ولست اذ كر لي جارياً على العهد يحسن ان يحسنا
فقال له الصاحب : قرأت في أخبار معن بن زائدة ان
رجلاً قال له : احماني ايها الامير فأمر له بفرس وبغلة وحمار
وزاقة وجارية ثم قال : لو علمت ان الله تعالى خلق مر كوبا
غير هذه لمملك عليه . وقد امرنا لك من الخبز بجمبة وقميص
ودراعة وسراويل وعمامة ومنديل ومظرف ورداء وجورب
ولو علمنا لباساً آخر يتخذ من الخبز لاعطيناكه ثم امر بادخاله
الخزانة وصب تلك الخلع عليه وتسليم ما فضل عن لبسه
في الوقت الى غلامه .

ومرض الصاحب وهو في الاهواز بالاسهال فكان اذا
قام عن الطست ترك الى جانبه عشرة دنانير حتى لا يتبرم
به الخدم فكانوا يودون دوام علقته ولما عوفي تصدق بنحو
من خمسين الف دينار .

مكارم اخلاقه

كان الصاحب على علو مكانته وتعاضمه سهل الجانب
لاخوانه فانه كان يقول لجلسائه : نحن بالنهار سلطان وبالليل
اخوان وقد رويت له حوادث تدل على مكارم اخلاقه
وحسن تهذيبه وسعة صدره من ذلك انه استدعى يوماً شرباً
من شراب السكر فجيء بقدح منه فلما اراد شربه قال له
بعض خواصه : لا تشربه فانه مسموم وكان الغلام الذي
ناوله واقفاً فقال للمحذر : وما الشاهد على صحة ذلك ؟ قال :
بان تجربته في الذي ناولك اياه قال : لا استجيز ذلك ولا استحمله
قال : فجربه في دجاجة قال : ان التمثيل بالحيوان لا يجوز
وامر بصب ما في القدح وقال للغلام انصرف عني ولا تدخل
داري بعدها واقر رزقه عليه وقال : لا يدفع اليقين بالشك
والعقوبة بقطع الرزق ندالة .

لكن هذا الرجل الذي تخرج عن تجربته شراب مشكوك
بسمه في دجاجة اقدم على سم علي بن كامة كما روى ذلك
صاحب ذيل تجارب الامم وستطلع على تفصيل هذه الحادثة
فيما يأتي .

ورفع الى الصاحب بعض منهي الاخبار ان رجلاً ممن
ينطوي له على غير الجميل يدخل داره في غمار الناس ثم
يتلوم على استراق السمع فوقع الصاحب : دارنا هذه خان
يدخلها من وفي ومن خان .

وقال ابو منصور البيهقي دخلت يوماً على الصاحب فطاولته
الحديث فلما اردت القيام قلت لعلي طوت فقال لا بل تطوت .
وقال القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني كان الصاحب
يقسم لي من اقباله واكرامه بجزان اكثر مما يتلقاني به
في سائر البلاد وقد استعفيته يوماً من فرط تحفيه به وتواضعه
لي فانشدني لنفسه :

اكرم اخاك بارض مولده وامده من فعلك الحسن
فالغز مطلوب وملتحمس واعزه مانيل في الوطن
ثم قال لي قد فرغت من هذا المعنى في العينية فقلت لعل
مولانا يريد قولي :

وشيدت مجدي بين قومي فلم اقل الا ليت قومي يعلمون صنيعي
فقال ما اردت غيره .

وكان الصاحب قد جعل القاضي عبد الجبار قاضي القضاة .

بهمذان والجبال فاستقبله يوماً ولم يترجل له وقال له ايها
الصاحب اريد ان اترجل للخدمة ولكن العلم يأبى ذلك وكان
يكتب في عنوان كتابه الى الصاحب « داعيه عبد الجبار
ابن احمد » ثم كتب « وليه عبد الجبار بن احمد » ثم كتب
« عبد الجبار بن احمد » فقال الصاحب لندمائيه اظنه يوؤول
لمره الى ان يكتب « الجبار » .

وقال الصاحب : ما فظعني الا شاب بغدادي ورد علينا
الى اصبهان فقصدني فاذنت له وكان عليه مرقعة وفي رجليه
تعل طاق فنظرت الى حاجبي فقال له وهو يصعد اليّ اخلع
تملك فقال ولم لعلني احتاج اليها بعد ساعة فغلبنني الضحك
وقلت اتراه يريد ان يصفعني بها .

بهرة قدره

الصاحب من افراد الوزراء الذين علت منزلتهم وعظمت
قدرتهم ووقرت مهابتهم في نفوس الناس فانه كان يجب
العاظم والبذخ والخيلاء ولقد مر فيما تقدم من سيرته حوادث
عدل على ذلك وفيما يأتي ثمة لما سبق .
كان الرجل مفتوناً بظاهري الابهة والعظمة فاذا بدامنه